الفتح الرباني

في حكم قراءة القرآن

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع

دولة الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي

ص.ب: ٥٠٤٠٣ - فاكس: ٠٠٩٧١٢٨٨٤٤٠٧٧

ركن بينونة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

ت: ٠٥٤١٣٤٢١٩٣

الفتح الرباني

في حكم قراءة القرآن بألحان الأغاني

تأليف

أبي أحمد ناصر بن عبد الله بن أحمد أبو غزالة

مدرس القراءات بالأزهر الشريف

ومدرس التجويد بمعهد الفرقان لإعداد الدعاة

والمقرئ بالقراءات العشر الكبرى وتخريراتها

وعضو نقابة القراء المصرية

مؤسسة بيسونة للنشر والتوزيع

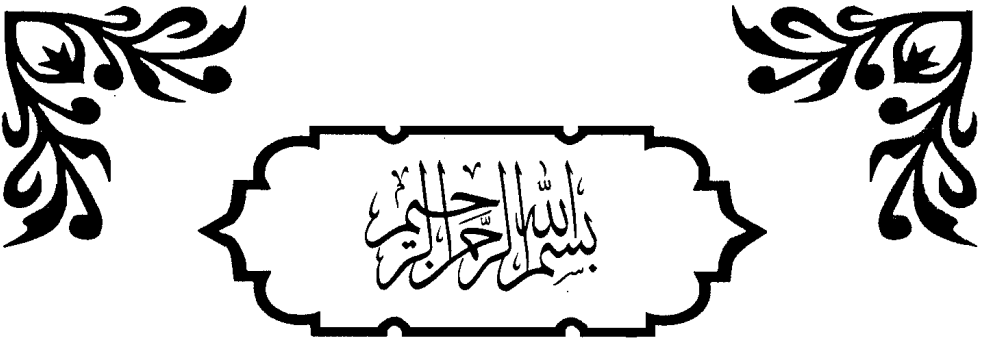

مُقدِّمة

إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، وَنَستَعينُهُ، وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أَنفُسِنا وَمِن سَيِّئاتِ أَعمالِنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلا هادِيَ لَهُ.

وَأَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النِّسَاء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزَاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بَعدُ:

فَإنَّ أَصدَقَ الحَديثِ كِتابُ اللهِ، وَخيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمورِ مُحدَثاتُها، وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.

ثُمَّ أَمَّا بَعدُ:

فالقرآنُ العظيمُ كتابُ اللهِ أَنزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وأَمَرَنَا بِقِرَاءتِهِ وتَدَبُّرِهِ والعَمَلِ بِأَحكَامِهِ فَهُوَ شَرِيعَتُنَا ومُعجِزَةُ نَبِيِّنَا وَمِن ثَمَّ حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى بِنَفسِهِ ولَم يَكِلهُ إِلَى البَشَرِ كَمَا حَدَثَ مَعَ التَّورَاةِ والإِنجِيلِ والزَّبُورِ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] فَكَانَ مِن ضِمنِ حِفظِهِ حِفظُ نُطقِهِ وَكَيفِيَةِ قِرَاءَتِهِ فَسَخَّرَ اللَّهُ العُلَمَاءَ فَقَامُوا بِوَضعِ ضَوَابِطَ وَقَوَاعِدَ يُتَوَصَّلُ بِهَا إلى النُّطقِ السَّلِيمِ دُونَ شَائِبَةِ تَغيِيرٍ لِمَا كَانَ عَلَيهِ أَيَامَ الرَّسُولِ ﷺ وَلَمَّا تَقَادَمَ الزَّمَانُ وَاختَلَطَ العَرَبُ بِالعَجَمِ وَنَبَتَ فِي الإِسلَامِ مَن هُوَ لِلسَّلَفِ نَاكِرٌ وَلِطَرِيقَتِهِم جَاحِدٌ ظَهَرَ التَّغَنِّي وَكَانَ بِدَايَةُ هَذِهِ البِدعَةِ فِي أَوَاخِرِ القَرنِ الثَّانِي الهِجرِيِّ حَيثُ قَرَأَ عُبَيدُ اللهِ بنُ أَبِي بَكرَةَ بِالأَلحَانِ وَوَرِثَ ذَلِكَ عَنهُ ابنُ ابنِهِ عُبَيدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وَلَكِنَّ الأَمرَ لَم يَخرُج عن التَّحسِينِ وَالتَّرَنُّم وَاستِقَامَةِ النَّغَمِ إِلَى أَن جَاءَ مُحَمَّدٌ بنُ سَعِيدٍ التِّرمِذِيُّ فَأَدخَلَ فِي القِرَاءَةِ الأَلحَانَ المُوَلَّدَةَ عَلَى أَوزَانِ الغِنَاءِ وَكَانَ أَوَّلُ مَا غُنِّيَ مِنَ القُرآنِ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩] فَمَا كَانَ مِنَ العُلَمَاءِ إِلَّا أَنَّهُم هَجَرُوهُ وَكَذَاكَ هَجَرُوا كُلَّ مَن سَارَ عَلَى ضَربِهِ كَالكَرمَانِيِّ وَالهَيثَمِ وَظَلَّ هَذَا دَأبُ الأَسلَافِ كُلَّمَا ظَهَرَ مِنهُم جِيلٌ هَجَرُوهُ وَرَدُّوهُ.

وَكَانَ مِمَّا ابتُلِيَت بِهِ الأُمَّةُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مَا يُسَمَّى بِالقِرَاءَةِ بِالمَقَامَاتِ المُوسِيقِيَةِ وَظَهَرَ في هَذَا الزَّمَانِ مَن يَقرَأُ القُرآنَ على القَانُونِ المُوسِيقَائِيِّ وَيَفعَلُ فِي قِرَاءَتِهِ كَمَا يَفعَلُ أَهلُ الغِنَاءِ بِغِنَائِهِم وَاستَدَلُّوا بِأَحَادِيثَ يَفهَمُونَهَا

عَلَى أَهوَائِهِم لَا يَتَقَيَّدُونَ فِيهَا بِفَهمِ الأَسلَافِ فَكَانَ لِزَامًا عَلَينَا أَن نُبَيِّنَ حُكمَ هَذَا الأَمرِ وَفَهمَ السَّلَفِ لِهَذِهِ الأَحَادِيثِ فَقُمتُ بِعَونِ اللهِ بِوَضعِ هَذِهِ الوُرَيقَاتِ راجيًا من اللهِ أن ينفعَ بها من يقرأُها وأن تكونَ عونًا على توضيحِ منهاجِ النبوةِ في قراءةِ القرآنِ

وأرجو الله أن يوفقني لما يحبه ويرضاه ويجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم إنه هو البر الرحيم.

كتبه

أبو أحمد ناصر بن عبد الله بن أحمد أبو غزالة

مدرس القراءات بالأزهر الشريف

المناشي /الجيزة/مصر

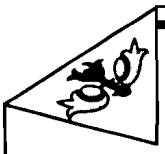

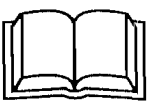

نَشأَةُ القِراءَةِ بالأَلحانِ

كانت قراءةُ الرسولِ ﷺ وكذا أصحابِهِ سَهلَةً عَذبَةً خَالِيَةً مِنَ الأَلحَانِ وكانَ منهم مَن صُوتُهُ حَسَنٌ كأبي مُوسَى الأشعريِّ وأُسيدِ بنِ حُضير وسَالِمٍ مَولَى أبى حُذَيفَةَ.

وظَلَّ الأَمرُ عَلَى هذا النَّحوِ حَتَّى القَرنِ الثَّانِي الهِجرِيِّ فَظَهَرَ أَبُو حَاتِمٍ عُبَيدُ اللهِ بنُ أَبِي بَكرَةَ[1] فَقَرَأَ القُرآنَ بِالتَّلحِينِ وتَبِعَهُ عَلَى ذلكَ نَجلُ ابنِهِ عُبَيدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وَتُنسَبُ إِلَيهِمَا القِرَاءَةُ فَيُقالُ قِرَاءَةُ العُمَرَينِ وَأَخَذَ مِنهُ الأَبَاضِيُّ الأَلحَانَ.

وَفِي عَصرِ الدَّولَةِ العَبَّاسِيَّةِ نَمَا الأَمرُ وازدَهَرَ فِي عَصرِ هَارُونَ الرَّشِيدِ فَكَانَ الرَّشِيدُ مُعجَبًا بِقِرَاءَةِ سَعِيدٍ العَلَّافِ وأَخِيهِ وَكَانَ يُعطِيهِ وَكَانَ يُعرَفُ بِقَارِئِ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ والعَلَّافُ أَخَذَ القِرَاءَةَ عَنِ الأَبَاضِيِّ.

وكَذَلِكَ كَانَ الهَيثَمُ وَأَبانُ وابنُ أَعيَنَ يُدخِلُونَ أَلحَانَ الغِنَاءِ وَالحُدَاءِ فِي القِرَاءَةِ ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدَ بنَ سعيدٍ التِّرمِذِيِّ قَرَأَ القُرآنَ عَلَى الأَلحَانِ المُوَلَّدَةِ مِن أَلحَانِ الغِنَاءِ فكانَ هَؤُلاءِ مَهجُورِينَ عِندَ العُلَمَاءِ.

---

(١) عبيد الله بن أبى بكرة الثقفى أبو حاتم أمير سجستان من الطبقة الثالثة من التابعين من أهل البصرة وهو ابن صاحب النبي ﷺ أبي بكرة نفيع بن الحارث. ولد سنة أربع عشرة، وكان كريمًا جوادًا. روى عن: أبيه، وعلي بن أبي طالب. روى عنه: سعيد بن جمهان، ومحمد ابن سيرين، وغيرهما. وقد ولي قضاء البصرة وولاه الحجاج إمرة سجستان وهو أول من قرأ القرآن بالألحان. توفي سنة تسع وسبعين بسجستان.

قَالَ ابنُ قُتَيبَةَ في «المعارف» (٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢):

«وكَانَ القُرَّاءُ كُلُّهُم: الهَيثَمُ وَأَبانُ وابنُ أَعيَنَ وغَيرُهُم يُدخِلُونَ فِي القِرَاءَةِ مِن أَلحَانِ الغِنَاءِ والحُدَاءِ والرَّهبَانِيَّةِ فَمِنهُم مَن كَانَ يَدُسُّ الشَّيءَ مِن ذلكَ دَسًّا رَقِيقًا ومِنهُم مَن كَانَ يَجهَرُ بِذَلِكَ حَتَّى يَسلَخَهُ فَمِن ذَلِكَ قِرَاءَةُ الهَيثَم: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] سَلَخَهُ مِن صَوتِ الغِنَاءِ كَهَيئَةِ:

أمّا القَطاةُ فإنّي سوف أنعَتُها ... نَعتًا يُوافِقُ نَعتي بعضَ ما فيها[1]

وكان ابنُ أَعيَنَ يُدخِلُ الشيءَ ويُخفِيهِ حتى كان الترمذيُّ محمدُ بنُ سعيدٍ فإنه قرأ على الأغاني المولَّدةِ المحدَثَةِ سَلَخَهَا في القراءةِ بأعيانها».اهـ.

وَظَهَرَ فِي العَصرِ الحَدِيثِ مَن يُطلِقُ عَلَى أُسلُوبِ القرآنِ مُوسيقَى القرآنِ وهذا مُصطَلَحٌ مُبتَدَعٌ يُسَوِّي القرآنَ كلامَ اللهِ بالغناءِ فَيَجِبُ العُزُوفُ عَنهُ ولا يَغتَرُّ القَارِئُ بِكَلَامِ أمثال عَبدِ الوَهَّابِ حَمُّودَةَ وَلَبِيبِ سَعِيد وابني قُطبٍ والسَّعدَانِيّ.

وَظَهَرَ جِيلٌ مِنَ القُرَّاءِ يُقَلِّدونَ المُغَنِّينَ وَالمُلَحِّنِينَ وَيَسِيرُونَ عَلَى دَربِهِم

---

(١) البيت عروضه من البسيط واختلف في قائله ونسبه الخليل (٢/ ٧٣) لامرئ القيس وبعده:

سكّاء مخطوبةٌ في ريشها طرقٌ ... سودٌ قوادمها صهبٌ خوافيها
منقارها كنواة القسب قلّمها ... بمبردٍ حاذق الكفّين باريها
تمشي كمشي فتاة الحيّ مسرعة ... حذار قومٍ إلى سترٍ يواريها
تسقي الفراخ بأفواهٍ مرقّقةٍ ... مثل القوارير سدّت من أعاليها
كأن هيدبة من فوق جؤجئها ... أو جرو حنظلةٍ لم يعد راميها

قال النويري في «نهاية الأرب» (١٠/ ١٥٩): «قال شاعر يصف القطاة، واختلف في الشاعر من هو، فقيل: هو أوس بن غلفاء الهجيميّ، وقيل: مزاحم العقيلي، وقيل: العباس بن يزيد بن الأسود الكنديّ، وقيل: العجير السّلوليّ، وقيل: عمرو بن عقيل بن الحجّاج الهجيميّ؛ قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهو أصحّ الأقوال» ثم ذكر الأبيات السابقة.

فالقارِئ الفلاني... يسير عَلَى درب عَبده الحَمُوليّ وَالقَارِئ الفلاني... يَستَمِعُ إِلَى عَباقِرَةِ المُوسِيقَى وَأَخَذَ عنهُم طَرِيقَتَهُ فِي القِراءَةِ وَهَا هُوَ القارِئُ الفلاني... يُلَحِّنُ وَيُغَنِّي القُرآنَ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّ منهُم من يَقرَأُ القُرآنَ وَهُوَ يضرب عَلَى عُودٍ أَو جِيتَارٍ أَو بِيَانُو وَإِذَا نَظَرتَ إِلَيهِم وَهُم يَقرَءُونَ تَجِدُ أَنَّهم كالمغنيين يحذون حذوهم لا يحيدون عن طريقتهم قيد أنملة فيشبهون كلام الرحمن بكلام الشيطان ويخرجون القراءة من الخشوع إلى الطرب وإلى الله المشتكى.

وظهر أيضًا في هذا العصرِ من يُطَالِبُونَ بِتَلحِينِ القُرآنِ عَلَى الآلاتِ الموسيقية ومن يفسرونه تفسيرًا موسيقيًّا.

وأصبح الشغل الشاغل لقارئِ القرآنِ تحصيل النَّغَم بل أصبحت هناك مدارسُ في النَّغَم: مدرسة القارئ الفلاني ومدرسة القارئ الفلاني وهذا القارئ يقرأ بالسيكا والآخر يقرأ بالصبا والثالث يقرأ بالحجاز وأصبح الهدف الأول للقارئ أن يَركَبَ مقامةً معينةً ويسير في مراحلها ابتداءً بالقَرَارِ وانتهاءً بجَوَابِ الجَوَابِ ومرورًا بالجواب.

والقرار: انخفاض في عدد اهتزاز النبرات الصوتية ويسمى عند أهل الغناء بالجواب الموسيقي.

والجواب: ازدياد نسبي في عدد اهتزاز النبرات الصوتية، ويسمى عند أهل الغناء السؤال الموسيقي.

وجواب الجواب: أعلى طبقة صوتية قد يصل لها القارئ بعد الجواب.

ولكي نتحدث عن حكم قراءة القرآن بالألحان فعلينا أولا أن نقدم بين يدي ذلك مقدمات مهمة والله المستعان.

المقدمة الأولى

(القرآن كلام الله)

القرآنُ كلامُ اللَّهِ، منزلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ[١] وإليه يعود.

---

(١) وفي قول سلفنا: «منه بدأ» ردًا على الجهمية والمعتزلة ومن على شاكلتهم لأنهم كانوا يقولون إنَّ اللهَ خَلَقَ الكلامَ في مَحلٍ، فبَدَأَ الكلامُ من ذلك المحلِ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٣٩): «وليس معنى قولِ السَّلفِ وَالأئمَّةِ «إنَّهُ منهُ خَرَجَ وَمِنهُ بَدَأَ»: أنَّهُ فَارَقَ ذاتَه وَحَلَّ بغيرِه، فإنَّ كلامَ المَخلوقِ إذا تَكَلَّمَ بهِ لاَ يُفَارِقُ ذاتَه وَيَحِلُّ بغيرِه، فكيفَ يَكونُ كَلامَ اللَّهِ قالَ تعالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] فقَد أخبَرَ أنَّ الكَلِمَةَ تخرُجُ من أفواهِهم، وَمَعَ هَذا فلَم تُفَارِق ذاتَهم. وَأيضًا فالصِّفَةُ لاَ تُفَارِقُ المَوصُوفَ وَتحِلُّ بغيرِه، لاَ صِفَةُ الخَالِقِ وَلاَ صِفَةُ المَخلُوقِ، وَالنَّاسُ إذَا سَمِعُوا كَلامَ النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ بَلَّغُوهُ عَنهُ، كَانَ الكَلامُ الَّذي بَلَّغُوهُ كَلامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَد بَلَّغُوهُ بِحَرَكَاتِهم وَأَصوَاتِهم، فالقُرآنُ أولى بذلِك فالكلامُ كلامُ البَارِي، والصَّوتُ صوتُ القَارِئ، قالَ تعالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وَقالَ ﷺ: «زَيِّنُوا القُرآنَ بأصواتِكم». ولكنَّ مَقصُودَ السَّلفِ الرَّدُّ عَلَى هَؤُلاءِ الجَهمِيَّةِ، فإنَّهُم زَعَمُوا أنَّ القُرآنَ خَلَقَهُ اللَّهُ في غيرِه فيَكونُ قَد ابتَدَأَ وَخَرَجَ مِن ذَلِكَ المَحَلِّ الَّذي خَلَقَ فِيهِ لاَ مِن اللَّهِ، كَمَا يَقُولُون: كَلامُهُ لِمُوسَى خَرَجَ من الشَّجَرَة، فَبَيَّنَ السَّلَفُ وَالأئمَّةُ أنَّ القُرآنَ مِن اللَّهِ بَدَأَ وَخَرَجَ، وَذَكَرُوا قَولَهُ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]. فأخبَرَ أنَّ القَولَ مِنهُ لاَ مِن غَيرِه مِن المَخلُوقَات، «ومن» هي لابتداء الغاية»اهـ.

وقال كما في «مجموعة الرسائل» (٣/ ١٦٣): «ولا يَجُوزُ أن يُقال: إنَّ كلامَ اللَّه فارق ذاته وانتقل إلى غيرِه. بَل يُقالُ كما قالَ السَّلفُ: إنَّهُ كلامُ اللَّه غيرُ مخلُوقٍ منهُ بدأ وإليه يعُودُ. فقولُهم: «منهُ بدأ» رَدٌّ عَلى من قال: إنَّهُ مخلُوقٌ في بعضِ الأجسامِ ومِن ذلك المخلُوق ابتدأ. فبيَّنُوا أنَّ اللَّهَ هُوَ المُتكلِّمُ به «مِنهُ بَدأ» لا من بعضِ المخلُوقات «وإليه يعُودُ» أي فلا يبقَى فِي الصُّدُورِ مِنهُ آيَةٌ وَلا فِي المَصَاحِفِ حَرفٌ وَأمَّا القُرآنُ فهُو كلامُ اللَّه». اهـ.

قال الشيخ هراس في «شرح العقيدة الواسطية» (١٩٩): «وَأمَّا مَعنى قولِ السَّلفِ: «مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعُودُ»؛ فَهُوَ مِنَ البَدءِ؛ يَعنِي: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ ابتِدَاءً، لَم يُبتَدأ من غيرِه، وَيَحتَمِلُ أَن يَكُونَ مِنَ البُدُوِّ؛ بِمَعنَى الظُّهُورِ؛ يَعنِي أَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّم بِهِ وَظَهَرَ مِنهُ، لَم يَظهَر مِن غَيرِه». اهـ.

فابتداءُ نزولِهِ من الله سبحانه، وإليه يعود قبل يوم القيامة حيث يرفع القرآن في آخر الزمان فَلَا يَبقَى فِي الصُّدُورِ مِنهُ كَلِمَةٌ وَلَا فِي المَصَاحِفِ مِنهُ حَرفٌ إيذانا بقيام القيامة أو إليه يعود ينسب إليه، تكلم به حقيقة حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، تكلم الله به قولا وأنزله على نبيه وحيًا، وسمع منه جبريل وبلغ جبريل رسول الله محمدًا ﷺ وسمع من جبريل رسول الله ﷺ، وتحدى به النبي ﷺ الثقلين وسمع الصحابة من الرسول ﷺ.

والله تعالى تكلم بصوت يسمع، فالله يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء بكلام حقيقي مسموع بحروف وصوت لا يشبه أصوات المخلوقين. فكما أن له ذاتا لا تشبه الذوات، فكذا صفاته لا تشبه الصفات وكذلك صوته لا يشبه صوت أحد من خلقه، ونحن نتكلم بالقرآن بأصواتنا، فأصواتنا مخلوقة ولكن كلام الله تعالى غير مخلوق.

وليس القرآن حكاية عن كلام الله، ولا عبارة عن كلام الله، كما يزعم المبتدعة.

فهو وإن خط بالبنان وتلي باللسان وحفظ بالجنان وسمع بالآذان وأبصرته العينان لا يخرجه ذلك عن كونه كلام الرحمن، فالأنامل والمداد والأقلام والأوراق مخلوقة، والمكتوب بها غير مخلوق والألسن والأصوات مخلوقة، والمتلو بها على اختلافها غير مخلوق، والصدور مخلوقة والمحفوظ فيها غير مخلوق، والأسماع مخلوقة والمسموع غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فالقرآن ابتداء نزوله من الله سبحانه، فمنه بدأ لم يأخذه جبريل من

اللوح المحفوظ كما يقوله أهل الضلال، ولم يكن من كلام جبريل ولا محمد الأمين ﷺ، إنما هو من كلام رب العالمين. وأما جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام فهما مبلغان عن الله ﷻ، فالكلام إنما يقال ويضاف لمن قاله مبتدأ، لا من قاله مبلغًا ومؤديًا.

فالدليل على أن القرآن كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

والدليل على أن كلام الله غير مخلوق أن الله أضافه إلى نفسه قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وجعله من فعله فقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] والكلام صفة المتكلم ليس شيئًا منفصلًا عنه.

والدليل على أنه منزل من الله قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ٢] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

والدليل على أن الله يتكلم متى شاء بما شاء قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أخبر الله تعالى أن تكليمه لموسى عليه السلام حصل بعد مجيئه وأنه حصل من موسى عليه السلام سؤال فأجابه الله بوقته.

والدليل على أن الله تكلم بحرف قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].

والدليل على أنه صوت قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢]. وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: ١٦] والنداء والمناجاة لا يكونان إلا بصوت.

والدليل على أنه لا يشبه أصوات المخلوقين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكلام الله ﷻ من صفاته الذاتية باعتبار أصله ومن صفاته الفعلية باعتبار آحاده لأنه يتعلق بمشيئته.

ومن قال القرآن أو شيء من القرآن مخلوق فهو كافر؛ لأن القرآن كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود، وكلامه صفته، ومن قال شيء من صفات الله مخلوق فهو كافر مرتد[1].

والقرآن الكريم المعجزة الكبرى الخالدة لنبينا محمد ﷺ وهو آخر الكتب المنزلة على الرسل؛ لا ينسخ ولا يبدل، وقد تكفل الله بحفظه من أي تحريف، أو تبديل، أو زيادة، أو نقص إلى يوم يرفعه الله تعالى قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وأهل السنة والجماعة (السلف الصالح) يهتمون بتعليم القرآن وحفظه، وتلاوته، وتفسيره، والعمل به. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩].

ويتعبدون لله تعالى بقراءته، على الوجه المشروع بقراءة سلسة عذبة سهلة بلا تنطع ولا تكلف ولا تشدق. قالَ ابنُ القيمِ في «إِغَاثةُ اللَّهفانِ» (٣٠٨/١):

«والمقصود: أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحرف ومَن

---

(١) ومن أراد الاستزادة في مسألة القرآن كلام الله غير مخلوق فليراجع كتب اعتقاد أهل السنة مثل:

أصول السنة للإمام أحمد بشروحها، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب التوحيد لابن منده، وكتاب التوحيد للطبري وأصول السنة لأحمد بن حنبل وكتاب السنة لعبد الله بن أحمد وكتاب السنة للخلال، وكتاب السنة لابن أبي عاصم، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي، والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة العكبري، واعتقاد أئمة الحديث لأبي بكر الإسماعيلي والإيمان لأبي عبيد بن سلام، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث لشيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني، ومجموع الفتاوى والفتاوى الكبرى ومجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية وتهذيب عقيدة أهل السنة للعثيمين، تهذيب شيخنا الدكتور رسلان.

تَأمَّلَ هَديَ رسولِ اللهِ ﷺ وإقرارَهُ أهلَ كُلِّ لِسانٍ على قِراءَتِهِم، تبيَّنَ لهُ أنَّ التَّنطُّعَ، والتَّشدُّقَ، والوَسوسَةَ في إخراجِ الحروفِ، ليسَ من سُنَّتِهِ».

ويفسرون القرآن بالقرآن وبالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم باللغة العربية التي نزل بها القرآن العظيم.

ولا يجوزون تفسير القرآن بالرأي المجرد؛ فإنه من القول على الله ـ بغير علم.

ويعربون القرآن مراعاة للمعنى الذي أراده الله ورسوله فلا يجعلون كلام الله تعالى كشعر زهير وعنترة وامرئ القيس والأعشى يحملونه أوجها كثيرة لا تليق به.

فأهل السنة لا يسلكون في إعرابه إلا الحمل على أحسن الوجوه، وأبعدها من التكلف، وأسوغها في لسان العرب.

فإذا كان القرآن كلام الله فلا بد من مراعاة قدسيته فينزه عن مشابهة الغناء من القراءة على إيقاعات وألحان الموسيقى ويحذر من قراءته بالتكلف والتنطع والتشدق، وكذا لا يحمل إعرابه إلا على أحسن الوجوه.

المقدمة الثانية

(قراءة القرآن عبادة)

من المتقرر لدى كل موحد أن العبادة عبارة عن أقوال وأفعال مشروعة يتقرب بها العبد إلى ربه قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته «العبودية» (٦) «العِبَادَةُ: هِيَ اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرضَاهُ: مِن الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالحَجُّ وَصِدقُ الحَدِيثِ وَأَدَاءُ الأَمَانَةِ؛ وَبِرُّ الوَالِدَينِ وَصِلَةُ الأَرحَامِ وَالوَفَاءُ بِالعُهُودِ وَالأَمرُ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ...».

فكل ما يتقرب به العبد إلى ربه على الوجه المشروع فهو عبادة والعبادات منها ما يتعلق بالقلب ومنها ما يتعلق باللسان ومنها ما يتعلق بالأركان وقراءة القرآن عبادة من العبادات التي تتعلق بعمل اللسان قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

رَوَى الإمام مُسلِمٌ (٨٠٤) عن أَبي أُمَامَةَ البَاهِلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اقرَءُوا القُرآنَ، فَإِنَّهُ يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصحَابِهِ، اقرَءُوا البَقَرَةَ وَآلَ عِمرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهرَاوَانِ، يَأتِيَانِ يَومَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَو كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَو كَأَنَّهُمَا فِرقَانِ مِن طَيرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَن صَاحِبِهِمَا، اقرَءُوا سُورَةَ البَقَرَةِ فَإِنَّ أَخذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَركَهَا حَسرَةٌ وَلَا تَستَطِيعُهَا البَطَلَةُ**». قَالَ مُعَاوِيَةُ: البَطَلَةُ: السَّحَرَةُ.

ورَوَى أيضًا (٢٦٩٨) عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «... **ومَا اجتَمَعَ قَومٌ فِي بَيتٍ مِن بُيُوتِ اللَّهِ يَتلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيتَدَارَسُونَهُ بَينَهُم إِلاَّ نَزلت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ وَحَفَّتهُمُ المَلاَئِكَةُ وَذكرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِندَهُ...**».

فإذا ثبت أن قراءة القرآن عبادة إذن لابد في قراءته من توافر شرطي قبول العبادة وهما الإخلاص والمتابعة.

المقدمة الثالثة

(شروط قبول العمل الصالح)

للعمل الصالح شروط لقبوله فلا يقبل أي عمل مما يتقرب به إلى الله ﷻ إلا بشرطين: الإخلاص والمتابعة قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥) عن الفُضَيلِ بنِ عياض رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قالَ فِي هَذِهِ الآيةِ: «أَخلَصُهُ وَأَصوَبُهُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا ولَم يَكُن صَوَابًا لَم يُقبَل وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَم يَكُن خَالِصًا لَم يُقبَل حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا وَالخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ».

إذن لابد في العمل الصالح من توافر شرطين وهما:

الشرط الأول:

إخلاص العمل لله وحده لا شريك له قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة: ٥].

روى مسلم (٧٦٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«قالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي تَرَكتُهُ وَشِركَهُ»** وفي «الموطأ»: **«فهو له كله أنا أغنى الشركاء»**[(١)].

---

(١) قال عبد الباقي: «و ما انفردت به نسخته - ابن قاسم - من الموطأ: مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من عمل عملا أشرك فيه معي غيري فهو له كله أنا أغنى الشركاء «. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا الحديث لا يوجد إلا في موطأ ابن القاسم وابن عفير من الموطآت» الموطأ (١/ ١٣).

وروى الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» [(١/ ٣١٧) رقم (٦٩٢)] عن سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي، إنها تقلب علي».

فيجب أن تكون العبادة مخلصة لوجهه تعالى لا يراد بها غرض من أغراض الدنيا من شهرة وجاه وغير ذلك.

الشرط الثاني:

المتابعة لرسول الله ﷺ وهذا هو تحقيق معنى شهادة أن محمدًا رسول الله إذ معناها: طَاعَتُهُ ﷺ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، واجتِنَابُ مَا نَهَى عَنهُ وَزَجَرَ، وألا يُعبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ على لسانه ﷺ لا بالبدع والأهواء.

أخرج البخاري في صحيحه معلقًا باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم (٤/ ٣٧٢) ومسلم (١٧١٨) وأحمد (٢٥٤٧٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيه أَمرُنَا، فَهوَ رَدٌّ**» أي مردود عليه.

وفي رواية عند البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) واللفظ له «**مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ منه فَهُوَ رَدٌّ**» ولفظ البخاري «**ما ليس فيه**».

فَمَن أَخلَصَ عملَهُ للهِ تعالى مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَمَلُهُ مَقبُولٌ مأجور عليه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٥].

وَالعمل الذي يفقد الشَّرطَينِ أَو أَحَدُهُمَا فهو مَردُودٌ على صاحبه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفُرقان: ٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على البكري المسمى «تلخيص كتاب الاستغاثة» (١/ ١٤٠ ـ ١٤١):

«فدِينُ الإِسلَام مَبنِيٌّ عَلَى أَصلَينِ من خرج عن واحدٍ منهما فلا عملَ له ولا دينَ: أَن نَعبُدَ اللَّهَ وَحدَهُ لَا نشرك به شيئًا وعلى أن نعبده بما شرع لا بالحوادث والبدع وهو حقيقة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله».اهـ.

وقال في «الفتاوى الكبرى» (٢/ ٢٤٢):

«وَالعِبَادَاتُ مَبنَاهَا عَلَى الشَّرعِ وَالاتِّبَاعِ، لَا عَلَى الهَوَى وَالابتِدَاعِ؛ فَإِنَّ الإِسلامَ مَبنِيٌّ عَلَى أَصلَينِ: أَن لَا نَعبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَحدَهُ، وَأَن نَعبُدَهُ بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ لَا نَعبُدُهُ بِالأَهوَاءِ وَالبِدَعِ».اهـ.

فقراءةُ القرآنِ عبادةٌ لا بُدَّ أن يَتَوَافَرَ فِيهَا الإِخلاصُ والمتابعةُ لا أن يَقرَأَه كلٌّ على حَسَبِ هواه وَما زينه له الشيطان من سوء عمله فصده عن السبيل فهو من العمين.